مظاهر افتقار الأنبياء إلى اللّه تعالى في القرآن الكريم

إعداد

د. سامية بنت عطية اللّه المعبدي

الأستاذ المشارك بقسم الكتاب والسنة - كلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

ملخص البحث

يعنى هذا البحث بذكر مظاهر افتقار الأنبياء إلى الله تعالى في القرآن الكريم، ومن أهدافه الوقوف على مواطن افتقار الأنبياء -عليهم السلام- إلى ربهم، واستجلاء مظاهر الافتقار من خلالها، وإيجاد أنموذجٍ من سير الأنبياء -عليهم السلام- يحتذى به، وتعزيز عقيدة الافتقار إلى الله في النفوس. وانتهج البحث المنهج الوصفي والاستقرائي والاستنباطي. وكان من نتائجه معرفة أهمية الافتقار وأنه أخص خصائص عبودية العبد لربه، وبيان أن الافتقار يقوم على ركنين هما إدراك العبد عظمة الله تعالى وكمال قدرته، وإدراكه ضعف المخلوق وعجزه، وأن الأنبياء عليهم السلام مع شرفهم وعلو منزلتهم عند ربهم إلا أنهم كانوا أكمل الخلق عبودية لله تعالى وأعظمهم إليه افتقاراً. ومن أهم توصياته القيام بمزيد من الدراسات حول الافتقار، ولاسيما في السنة النبوية للوقوف على مظاهر افتقار النبي ﷺ إلى ربه، وكيف غرس هذه المعاني في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم.

الكلمات المفتاحية: الافتقار- الأنبياء- علامات- عبودية- تذلل.



Abstract

This research is concerned with the aspects of the prophets' need of Allah Almighty in the Holy Qur'an. Among the objectives of the research are to discover the signs of the prophets' need of their Lord, to clarify the manifestations of this need, to find a model from the prophets' biography to be emulated, and to reinforce the doctrine of the need of Allah in souls. Methodology of the research: The research followed the inductive and deductive approaches. Results of the research: Among results of the research are knowing the importance of need and that it is specific to the characteristics of the servant's servitude to his Lord, and the statement that need was based on two pillars, namely, the servant's perception of the greatness of Allah Almighty and the perfection of His power, and his perception of the weakness and inability of mankind, and that prophets, peace be upon them, with their honor and high esteem with their Lord were the most perfect of creation in servitude to Allah Almighty and the greatest of them to Him in need. Recommendations of the research: To carry out more studies on need of Allah, especially in the honorable Sunnah, to discover the Prophet's need of his Lord, and how he raised his companions, may Allah be pleased with them, according to this great belief.

Key words: Need - Prophets - Signs - Slavery – Humiliation.



مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره أما بعد:

إن مما قرره الله سبحانه وتعالى غناه التام عن خلقه، وفقرهم جميعا إليه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر: ١٥]، وهذا مما ينبغي أن يدركه العبد، فيستشعر أهمية التذلل لله سبحانه، ويكون دائم الافتقار إليه في كل حال، ويشهد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه. فإن الافتقار إلى الله تعالى ما هو إلا تحقيق لعبودية الله تعالى التي خلق لأجلها الخلائق. ومعلوم أن الله سبحانه أرسل في كل أمة رسولا هاديا لهم إلى سبيل ربهم، يتخذونه أسوةً لهم ونبراساً يسيرون وفق نهجه؛ من هنا كان الأنبياء عليهم السلام -وهم الأصفياء من العباد، والقدوة لأممهم- قد حققوا عبودية الله تعالى، وأظهروا افتقارهم إليه سبحانه؛ لذا أحببت أن أبين مظاهر افتقار الأنبياء لله ﷻ من خلال تتبع قصصهم الواردة في القرآن الكريم فجاء اختياري لهذا البحث الموسوم بـ: (**مظاهر افتقار الأنبياء إلى الله في القرآن الكريم**).

مشكلة البحث: تظهر مشكلة البحث من خلال إجاباته على الأسئلة الآتية:

- ما حقيقة الافتقار؟ وهل يتنافى في حقيقته مع الغنى؟ وما أهميته؟
- كم عدد المواطن التي تضمنت افتقار الأنبياء عليهم السلام؟ وما هي مظاهر افتقارهم؟
- ما آثار الافتقار؟ وما هي الدروس والهدايات المستفادة من دراسة مظاهر افتقار الأنبياء عليهم السلام؟

حدوده: قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم.

أهداف البحث: يروم هذا البحث تحقيق عدد من الأهداف منها.

١. بيان حقيقة الافتقار، وتوضيح أهميته.
٢. إبراز افتقار الأنبياء -عليهم السلام- إلى ربهم، واستجلاء مظاهر هذا الافتقار.

٤- إيجاد أنموذجٍ من سير الأنبياء –عليهم السلام- يحتذى به، وتعزيز عقيدة الافتقار إلى الله في النفوس.

٥- استنباط الدروس والعبر والهدايات من خلال مظاهر افتقار الأنبياء عليهم السلام.

أهمية الموضوع:

١- ارتباطه بالتدبر الذي أمر الله ﷻ به في القرآن الكريم.

٢- الوقوف من خلال دعوات الأنبياء عليهم السلام على وجود الحاجة والافتقار الدائم إلى الله سبحانه وتعالى.

٣- بيان الآثار المترتبة على افتقار الأنبياء عليهم السلام.

الدراسات السابقة:

- ضوابط الافتقار إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، أحمد محمد فخر الدين، السعيد للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٤٠هـ. وهذه الدراسة تشترك مع البحث في تعريف الافتقار، والحديث عن الافتقار إلى الله في حياة الأنبياء –عليهم السلام- لكن الفرق أن هذا البحث قد ربط بين مظاهر الافتقار وما ورد من آيات تمثل لهذا المظهر في افتقار الأنبياء الوارد في القرآن، كما انفرد ببعض النماذج التي لم تذكر في تلك الدراسة، وببيان ثمرات الافتقار.

- مفهوم الافتقار إلى الله تعالى بالمنظور القرآني والسنة النبوية دراسة تأصيلية موضوعية، عمر ياسين طه، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد (٢٢/ ٢)، ١٤٤٢هـ، وهذه الدراسة اشتركت مع البحث في تعريف الافتقار، لكنها تباينت معه، فكان مقصدها الآيات والأحاديث الدالة على الافتقار بمعناه العام، ولم تعرج إلى مظاهر افتقار الأنبياء –عليهم السلام-، وهو ما تناوله هذا البحث، فلم تشر تلك الدراسة إلى الآيات الدالة على مظاهر افتقارهم سوى آية واحدة وهي الآيات الواردة في افتقار النبي ﷺ يوم حنين، المكية.

- كتاب بعنوان (الافتقار إلى الله، لبّ العبودية) لأحمد بن عبد الرحمن الصويان، والذي نشرته مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض عام ١٤٢٥ه، وهو وإن اشترك مع البحث في

تعريف الافتقار وذكر أركانه، لكن فارقه من جهة غرضه فإن مقصود هذا البحث لا يقتصر على الجانب النظري للافتقار بل قصد استظهار مواطن افتقار الأنبياء -عليهم السلام- إلى ربهم من خلال قصصهم الواردة في القرآن الكريم وهو مالم يتطرق إليه المؤلف في كتابه، وكذلك زاد عليه بذكر ثمرات الافتقار.

- دعاء الأنبياء في القرآن الكريم، رسالة ماجستير مقدمة من الطالبة وداد طاهر محمد نصر، بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية بفلسطين، عام ٢٠١٠م. وهي مباينة تماما لهذا البحث حيث تناولت مفهوم الدعاء، وبيان أنواعه من خلال دعاء الأنبياء، ودلالة دعائهم على أنواع التوحيد، ولم تتعرض لافتقار الأنبياء في دعائهم إلا من حيث بيان وجه دلالة دعائهم على الافتقار في صفحة واحدة فقط من الرسالة. كما تناولت رسالتها صفات دعائهم، والبلاغة في تلك الدعوات، واستنبطت آداب الدعاء من خلال دعوات الأنبياء، والآثار العقدية، والنفسية، والاجتماعية المترتبة على دعائهم. وجميع ما تناولته تلك الرسالة مختلف تمام الاختلاف عما قصده هذا البحث من الوقوف على مظاهر افتقار الأنبياء عليهم السلام.

منهج البحث وإجراءاته: سأتبع في هذا البحث المناهج التالية:

المنهج الوصفي: من خلال تعريف الافتقار، وذكر أركانه، وبيان أهميته.

المنهج الاستقرائي: من خلال جمع الآيات القرآنية التي تظهر افتقار الأنبياء إلى الله ﷻ.

المنهج الاستنباطي: وذلك بدراسة الآيات المشتملة على مظاهر الافتقار، وتفسيرها، والخلوص إلى عدد من النتائج والفوائد من خلال التحليل والاستنباط.

أما إجراءات البحث فهي كالآتي:

- جمع الآيات القرآنية التي تظهر افتقار الأنبياء إلى الله ﷻ.
- تخريج الأحاديث من أصول المصادر المعتمدة، فإن كان الحديث في الصحيحين، أو أحدهما اكتفي بالعزو إلى موضعه في الصحيحين. وإن كان في غيرهما فأني أتتبعه من أصول كتب السنة مع ذكر حكم العلماء عليه.

- إيضاح الغريب من الألفاظ والمصطلحات من خلال المعاجم اللغوية.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة كالآتي:

المقدمة: وتحتوي على موضوع البحث، ومشكلته، وحدوده، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وإجراءاته، وخطة البحث.

المبحث الأول: تعريف الافتقار، وذكر أركانه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الافتقار .

المطلب الثاني: أركان الافتقار.

المبحث الثاني: أهمية الافتقار.

المبحث الثالث: افتقار الأنبياء -عليهم السلام- إلى الله تعالى.

المبحث الرابع: ثمرات الافتقار

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات ويليها ثبت المصادر والمراجع.

ومن ثم فإني أسأل الله تعالى التوفيق فيما أقصد إليه، والعون على ما يرضيه، وأن يجعل هذا العمل صالحاً خالصاً إنه ولي ذلك والقادر عليه.



المبحث الأول

تعريف الافتقار، وذكر أركانه

المطلب الأول: تعريف الافتقار لغة، وبيان حقيقته.

الافتقار مأخوذ من الفقر وهو ضد الغنى، يُقال افتقر فلانا أصابه الفقر، وأَفْقَرَهُ الله تعالَى مِنَ الفَقْر فافْتَقَر، و«الفقير» المحتاج المضطر غاية الاضطرار(1)، وقد ورد لفظ الفقراء في القرآن الكريم، وأريد بهم المحتاجون سواء أكانت الحاجة مادية كقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧١﴾[البقرة: ٢٧١]، أم معنوية كقوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر: ١٥] فالفقراء في هذه الآية هم المحتاجون إلى الله في جميع أمور الدين والدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق، وهو الغني على الإطلاق(2). هذا وقد بين ابن القيم(3) -رحمه الله- أن الفقر بمعناه الحقيقي ليس الحاجة إلى المال، وإنما هو "دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد -في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة- فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه"(4)، فمتى افتقر العبد إلى ربه في جميع أموره، فتحقق أن الله هو المعطي المانع فرضي

(١) انظر كتاب العين، الخليل بن أحمد، (٥/ ١٥٠)، مادة [فقر]، تحقيق: د.مهدي المخزومي و د.إبراهيم السامرائي، (د. ط)، بيروت، دار مكتبة الهلال، (د. ت) ؛ تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، (١٣/ ٣٣٦)، تحقيق: مجموعة من المحققين، (د. ط)، الكويت، دار الهداية، (د. ت).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، (٤/ ٣٤٥)، (د. ط)، بيروت، دار الفكر، (د. ت).

(٣) مُحَمَّد بن أبي بكر بن أَيُّوب بن سعد الدِّمَشْقِي شمس الدّين ابْن قيم الجوزية الْحَنْبَلِيّ، فقيه محدث ومفسر، وهو تلميذ ابن تيمية ومن أبرز أئمة المذهب الحنبلي، كَانَ وَاسع الْعلم عَارِفًا بِالْخِلَافِ ومذاهب السّلف، له مصنفات كثيرة منها: أعلام الموقعين، وبدائع الْفَوَائِد، وَشرح منَازِل السائرين، وَالْقَضَاء وَالْقدر، وَالصَّوَاعِق الْمُرْسلَة على الْجَهْمِية والمعطلة وتصانيف أُخْرَى، مَات فِي ثَالِث عشر شهر رَجَب سنة ٧٥١هـ. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، العسقلاني، (٥/ ١٣٧-١٤٠)، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط٢، حيدر اباد-الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م ؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، (١/ ٦١).

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (٢ / ٤١١)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

بقضائه، وشكره على نعمائه، وفزع إليه في كشف ضرائه، نشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه، وهذا المعنى يرجع إلى الفقر الذي ذكره الله ﷻ في قوله ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر: ١٥]، ولما سُئِلَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ(١) عن الفقر قَالَ: حقيقته أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها.

وَقَالَ الشِّبْلِيُّ(٢): حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله، أي أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله. وإذا كنت لنفسك فثمّ ملك واستغناء مُنَافٍ للفقر(٣)، يقول ابن القيم: "وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الْجِدَةُ ولا الأملاك؛ فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذُرْوَتِهِ مع جدتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل ﷺ كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ كان كما قال الله تَعَالَىٰ:﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[الضحى: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم"(٤).



---

(١) يحيى بن معاذ، أبو زكريا الرازي.، واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري، كان حكيم زمانه، دَوَّن الناس كلامه وجمعوا ألفاظه، وقد أسند أحاديث يسيرة عن إسحاق بن سليمان الرازي، ومكي بن إبراهيم البلخي، وعلي بن محمد الطنافسي. أقام ببلخ، ومات في نيسابور سنة ثَمَان وَخمسين وَمِائَتَيْنِ. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، (١٦/ ٢٠٦)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، (٦/ ١٦٥)، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط)، بيروت، دار صادر، ١٩٠٠م.

(٢) أبو بكر الشبلي، اختلف في اسمه واسم أبيه: فيقال: دلف بن جحدر، ويقال: دلف بن جعفر، ويقال: اسمه جعفر بن يونس، شيخ الصوفية، كان عالما فقيها على مذهب مالك، وكتب الحديث الكثير. صحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحد الوقت حالا وعلما، توفي ببغداد لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة. تاريخ بغداد، (١٦/ ٥٦٣)؛ وفيات الأعيان، (٢/ ٢٧٣).

(٣) انظر مدارج السالكين، ابن القيم، (٢ / ٤١١).

(٤) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

المطلب الثاني

أركان الافتقار

يقوم الافتقار على ركنين عظيمين متى ما توافرا قام البناء واشتدّ.

أولهما: إدراك عظمة الله تعالى وجبروته وسلطانه، ويتحقق ذلك بالعلم بالله، والوقوف على منتهى كماله وجلاله من خلال ما أخبر به ﷻ عن نفسه في كتابه الكريم، أو على لسان نبيه ﷺ؛ فالعبد يدرك عظمة الله تعالى بإدراك ما اتصف به من صفات الجلال ونعوت الكمال التي تفرد بها عن المخلوقين قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١]، إنه ليدرك عظمة الله ﷻ حين يعلم كمال حياته وقيوميته وغناه عن خلقه، يدركها حين يعلم أنه وحده مالك الملك قَالَ تَعَالَى:﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[التغابن: ١]، وأنه سبحانه المتفرد بالتدبير والعطاء والمنع قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾[فاطر: ٢-٣] يقول السعدي(١): "فهذا يوجب التعلق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه"(٢)، وإلى هذا التفرد لفت الله تعالى الأنظار قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، إن العبد ليدرك عظمة الله في مشيئته النافذة، وعلمه المحيط، وبطشه الشديد، ورحمته الواسعة، يدركها في عزته وجبروته، وكلامه المعجز، ونحوها من الصفات التي اتصف بها سبحانه، وأخبر عنها في

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، من علماء الحنابلة، مفسر، أصولي، فقيه، واعظ، له مؤلفات عديدة منها: القواعد الحسان لتفسير القرآن، القواعد والأصول الجامعة، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان وغيرها، توفي سنة ١٣٧٦هـ في عنيزة. انظر الأعلام، الزركلي، (٣/ ٣٤٠)، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م؛ معجم المؤلفين، كحالة، (١٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص٦٨٤، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط١، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م

كتابه الكريم، وحسبك ما وصف به الرحمن نفسه في آخر سورة الحشر حين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤] حسبك تلك الآيات ونحوها من آيات الكتاب لتعلم كمال عظمة الله، فإنه سبحانه قد عرّف عليه عباده بجملة من أسمائه وصفاته الدالة على كماله وجلالة قدره، يقول الإمام ابن القيم: "القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيوجب للعبد شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له"(١)، ولو نظرنا في الآيات والسور التي ورد في فضلها ما ورد من أحاديث صحيحة نجد علة تفضيلها ما اشتملت عليه من أسماء الله ﷻ وصفاته، فأعظم آية في كتاب الله تعالى وهي آية الكرسي، كما دلّ عليه ما روي عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»(٢)؛ نجد أن الله ﷻ قد أثنى فيها على نفسه بما هو أهله من الصفات العلى والأسماء الحسنى. أما سورة الفاتحة أعظم

(١) انظر الفوائد، ابن القيم، ص٦٩، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وَقَصْرِهَا، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (١/ ٥٥٦)، ح (٨١٠).

سور القرآن الكريم(١) لم تخلُ من ذكر أسماء الله ﷻ وصفاته، ولم تبلغ سورة الإخلاص أن تعدل ثلث القرآن(٢) إلا لاشتمالها على مثل ذلك، "فقد تضمنت توجيه الاعتقاد وصدق المعرفة، وما يجب إثباته لله من الأحدية المنافية لمطلق الشراكة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد المقرر لكمال المعنى، ونفي الكفء المتضمن لنفي الشبيه والنظير"(٣)

كذلك فإن من سبل إدراك العبد عظمة الله تعالى أن يتأمل آياته الكونية، ويعمل الفكر في إتقانها، ودلالتها على عظمة خالقها ومدبرها وكمال قدرته، "فجميع المخلوقات من الذرة إلى العرش سبل متصلة إلى معرفته ﷻ وحجج بالغة على أزليته، والكون جميعه ألسن ناطقة بوحدانيته، والعالم كله كتاب يقرأ حروف أشخاصه المتبصرون على قدر بصائرهم"(٤)، وقد لفت الله سبحانه أنظار العباد إلى تلكم الآيات، ودعاهم إلى التأمل فيها قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ

(١) دليل ذلك ما روي عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤]. ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، قَالَ: {الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ» أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ، (٦/ ١٧)، ح (٤٤٧٤).

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ» صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ فَضْلِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، (٦/ ١٨٩)، ح(٥٠١٥)؛ صحيح مسلم، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، (١/ ٥٥٧)، ح (٨١١).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، العسقلاني، (٩/ ٦١)، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب، (٢/ ٢٣٤)، تحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، ط١، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾[الأعراف: ١٨٥]، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية: ١٧ – ٢٠] وغيرها من الآيات، التي يدعو فيها الله تعالى عباده إلى النظر في آياته ومفعولاته؛ لأن ثمرة النظر في ملكوت الله، وعاقبة التفكر في آياته إدراك عظمة الله وقدرته التامة، وازدياد الإيمان به، واليقين بأن له صفات الجلال ونعوت الكمال والعظمة فلا يملك العبد معه إلا الإقرار قائلا ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[آل عمران: ١٩١]، كما إن التفكر في آيات الله أعظم داعٍ للعباد إلى محبة الله وشكره وتعظيمه وطاعته وملازمة ذكره، قال ابن القيم: "وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه، أوقعك على العلم به ﷻ، وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه؛ فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته"(١).

وليست الآيات الكونية الشاهد الوحيد على عظمة الله، بل تلكم الآيات القائمة في كل نفس شاهدة على عظمة الخالق ﷻ وكمال قدرته، فإن العبد لو نظر إلى أول خلقه من نطفة من ماء مهين مستقذر كيف استخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بُعد كل منهما عن صاحبه،

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (١/ ١٨٧)، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).

وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قراراً مكيناً لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ثم قلّب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظاماً مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها، وهكذا تتدرج أطوار خلق الإنسان إلى أن يخرج بهذه الصور التي صوره الله عليها فشقّ له السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسّم الأصابع بالأنامل، وركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه"(١). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٤]، وإلى عظمة خلقه ﷻ في الأنفس وجّه الأبصار قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[الذاريات: ٢١]، قال الشوكاني: "وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به الرسل، (أفلا تبصرون) فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية، وأنه لا شريك له، ولا ضد، ولا ند"(٢).

كما امتنّ سبحانه على عباده بخلقه إياهم في أحسن صورة، وبما جعل لهم من السمع والأبصار والأفئدة قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[التين: ٤] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[الإنسان: ٢]، ففي الأنفس وما حوته من آيات القدرة الإلهية دليلٌ على وحدانية الله وعظمته، والشهادة على تلك النفس بالعبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حركة وسكنة، وفي

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (١/ ١٨٨)؛ التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، ص٣٠٣ -٣٢٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، (٥/ ٨٥).

كل صغير وكبير. قال السعدي: "ومن أسباب الإيمان ودواعيه، التفكر في الكون في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان وما هو عليه من الصفات فإن ذلك داعٍ قويٍ للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره"(١).

أما الركن الثاني الذي يقوم عليه الافتقار فهو إدراك ضعف المخلوق وعجزه؛ فإن العبد متى استشعر عظمة خالقه وكمال قدرته، وعلم أن ما حاز من أسباب المنعة والقوة إنما وهبها له ربه الغني الكريم، وأنه ليس له في ذلك حول ولا قوة، وأنه ما نال الذي ناله من العزّ والجاه بحوله وقوته، بل إنه لا يملك لذلك صرفاً ولا عدلاً؛ أدرك مدى ضعفه وعجزه، ذلك الضعف الذي قرره الله ﷻ بقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء: ٢]، وفي المراد بضعْف الإنسان ذكر ابن الجوزي أقوالاً ثلاثة :أحدها أنه الضعف في أصل الخلقة، قال الحسن: هو أنه خُلق من ماءٍ مهين .والثاني: أنه قلة الصبر عن النساء. والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى(٢). يقول ابن القيم بعد أن ذكر بعض أقوال السلف في تفسير الآية- "والصواب أَن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أَعظم من هذا وأَكثر؛ فَإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أَسرع من السيل في الحدور"(٣).

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٥٢-٥٣، ط١، الرياض، دار المنهاج، ١٤٣٦هـ.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (١/ ٣٩٥)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص١٨٥، تحقيق: عمر بن محمود، ط٢، الدمام، دار ابن القيم، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

كذا قرر الله تعالى ضعف الإنسان بقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الأنفال: ٦٦] يقول الشيخ السعدي: "ضعف الإنسان من جميع الوجوه ....فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته"(١)، وهو مع هذا قد سبق بالعدم قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[الإنسان: ١]، وما حديث القرآن عن أصل البشر وبداية خلقهم ونشأتهم إلا لإيقاف العباد على حقيقة خلقتهم العاجزة الضعيفة قال تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[عبس: ١٨-١٩] وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾[الطارق: ٥ – ٧] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[المرسلات: ٢٠]، بل إن هذا الضعف ليس في أصل النشأة فحسب بل هو ضعف ملازم لهم قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾[الروم: ٥٤]، ضعف حتى فيما وهبهم خالقهم من العلم قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء: ٨٥] إن ضعف العبد، وشعوره بذلك الضعف يدفعه إلى أن يُقبل على ربه دافعا فقره وفاقته بافتقاره إليه. هذا وقد جمع الإمام ابن القيم بين هذين الركنين بقوله: "مَنْ كملت عظمة الحق تعالى في قلبه؛ عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة مَنْ هو دونه. ومَنْ عرف قدر نفسه وحقيقتها؛ وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه؛ عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس. وأيضاً فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه؛ عظمت الجناية عنده؛ فشمَّر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به؛ يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به"(٢).



(١) تيسير الكريم الرحمن في تيسير كلام المنان، السعدي، ص١٧٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (١/ ١٦٤).

المبحث الثاني

أهمية الافتقار

تظهر أهمية الافتقار إلى الله من جهة أنه أخصّ خصائص العبودية وأعلى درجاتها، بل هو جذرها الراسخ وقمتها الشامخة، فلا عبودية إلا بفقر وإخبات وتذلل وخضوع. ولا يخفى ما للعبودية من أهمية فهي الغاية العظمى التي لأجلها خلق الله العباد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: ٥٦] فمن رام تحقيق تلكم الغاية الربانية فعليه أن يحقق أصلها العظيم ألا وهو الافتقار، يقول ابن القيم: "إنَّ مقام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً للهّ وانقياداً وطاعة، ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لقهره، ذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه"(١)، وثمرة تحقيق العبد تلك العبودية لله ﷻ القائمة على كمال افتقاره لربه أن يَشرُف قدره عند ربه، فإن العباد تتفاضل أحوالهم ويتفاوت قدرهم، وأشرفهم عند الله قدراً أكملهم له عبودية وأعظمهم إليه افتقاراً، من هنا كان الافتقار إلى الله تعالى هدي الأنبياء -عليهم السلام- ومنهجهم، فهم أكمل الخلق عبودية، وأعظمهم تذللاً وخضوعاً، بل إن الله سبحانه وتعالى أمر أفضل الرسل عليه الصلاة والسلام أن يظهر افتقاره إلى ربه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[الجن: ٢٢] "فأمره بالافتقار واللجوء إليه ثم بإظهارهما بقوله؛ ليزيد بذلك للكافرين ضلالاً وللمؤمنين إرشاداً"(٢). فكان له ﷺ في هذا المقام أوفر الحظ وأجزله، فتمثل الافتقار إلى الله تعالى في كل حركةٍ وسكنةٍ، وما من حالٍ من أحواله ﷺ إلا وهو معلن افتقاره إلى ربه وإخباته إليه، فحاز بذلك أعظم المقامات وأسناها، فهو سيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، وأول من تفتح له أبواب الجنة، وهو من أسري به لكمال عبوديته قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، ص٢٨٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، التستري، ص ١٧٩، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ.

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾[الإسراء: ١]، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بل إنه صاحب الشفاعة العظمى، هذه المنقبة العالية التي نالها لعظم افتقاره إلى الله ففي الحديث (..فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)[١].

وإبراهيم عليه السلام مَن زكّاه ربه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾[النحل: ١٢] وشرّفه باتخاذه خليلا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾[النساء: ١٢٥]، إنما نال تلكم المكانة الرفيعة، وحاز شرف الخُلّة لأنه "جعل فقره وفاقته إلى الله تعالى"[٢]، واستغنى به عن غيره.

وموسى عليه السلام خصّه الله بكلامه فهو (كليم الرحمن)، فما سرّ تلك المنقبة؟ وكيف نال شرفها؟ إنه الافتقار إلى الله الواحد القهار، تُحاز به المناقب، ويُنال به الشرف العظيم؛ فإنه عليه السلام لما خرج من مصر خائفا بلا زاد ولا ظهر، فارّا من فرعون وقومه، قاصدا مدين[٣] مع كونه غير عالم بالطريق الموصل إليها، لجأ إلى الله ربه راجياً أن يكون هاديه في تلكم المسافات الشاسعة والأبعاد المترامية، قائلاً بافتقار المضطر ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾[القصص: ٢٢] فهداه ربه "ووفقه لسلوك الطريق الأعظم نحو مدين فكان ذلك سبب نجاته"[٤]، ولـمـّا بلغ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: ٣]، (٦/ ٨٤)، ح (٤٧١٢)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، (١/ ١٨٤)، ح(١٩٤).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، (١/ ٤٣٢)، تحقيق: محمد على شاهين، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

(٣) مدين بالشام على ساحل بحر القلزم، وهي خراب وسميت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب عليه السلام، وأما البئر التي استقى منها موسى عليه السلام فقد بني على أفنيتها بيت من صخر، فيه كهف، وحولها قبور منقورة في الصخر فيها عظام بالية كأمثال عظام الإبل. ولا أثر لذلك الآن. انظر الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد الحميري، ص٥٢٥، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٥/ ٤٧٥)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

مدين قصد ماءها ليشرب؛ فقد أنهكه التعب واشتد به الجوع والعطش، فوجد على الماء أمةً يسقون أغنامهم ومواشيهم، ووجد في مكانٍ أسفل من مكان السقي امرأتين تحبسان غنمهما عن الماء وتمنعانها من الاختلاط بأغنام القوم، فكان حالهما موجبا للسؤال، قال: ما خطبكما؟ (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ) "صونا لنفسيهما عن الاختلاط بالرجال، أو لضعفهما عن المزاحمة. ثم قالتا (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) اعتذارا لموسى عليه السلام عن معاناتها في سقي الغنم بنفسيهما"[1]، وعلى الرغم مما به ﷺ من الجهد وشدة الجوع إلا أن ذلك لم يمنعه من معونتها فسقى لهما؛ رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، ثم تولى إلى الظل ليقيل تحته ويستريح فهو المنهك من السفر والجوع، المتعب من عناء السقي، من تكالب عليه الهم والقلق وخوف الترقب فكانت تلكم الأسباب مجتمعة دافعةً له أن يتملق عطاء الكريم ويفتقر إلى ربه الوهاب ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[القصص: ٢٤] قال التستري[2]: "رجع إلى الله بالافتقار والتضرع، فقال: إني لما عودتني من جميل إحسانك على الدوام، فقير إلى شفقتك، ونظرك إلي بعين الرعاية والكلاءة"[3]، "وهذا سؤالٌ منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال"[4]. ولقد كان هذا الأدب في الافتقار، والخضوع والتذلل على هذا النحو البديع من موسى بن عمران سبباً ينال به شرف النبوة، والتكليم الإلهي.

كذا تظهر أهمية الافتقار من جهة موافقته للفطرة، فإن الافتقار حاجةٌ فطريةٌ جُبل عليها الخلائق، فإنه سبحانه خلقهم وأودع في فطرهم الافتقار إليه وعدم الاستغناء عنه طرفة عين،

(١) انظر المرجع السابق، (٥/ ٤٧٦)؛ تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الهروي، (٢١/١٤٧)، ط١، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله التستري، أبو محمد. ولد سنة مئتين. كان من أعيان الشيوخ في زمانه، وله كلام نافع في التصوف والسنة وغير ذلك، من مصنفاته: "تفسير القرآن" مختصر، و"رقائق المحبين" وغير ذلك. توفي سنة ثلاث وثمانين وقيل ثلاث وتسعين ومائتين للهجرة. وفيات الأعيان، ابن خلكان، (٢/ ٤٢٩)؛ تاريخ الإسلام، للذهبي، (٦/ ٧٥٦)، تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، ط١، (د. م)، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.

(٣) تفسير التستري، ص ١١٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان، السعدي، ص ٦١٤.

فهم فقراء إلى الله في إيجادهم وإعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، فقراء إلى الله في إمدادهم بالأقوات والأرزاق وسائر النعم الظاهرة والباطنة، فقراء إليه سبحانه في صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الشدائد، فقراء إلى توفيقه ورعايته وإلى توجيهه وهدايته، فقراء بكل معنى وكل اعتبار. وأشد الخلائق إليه افتقاراً، وأكثرهم للاعتماد عليه اضطراراً هم الناس؛ لكثرة رغباتهم وتنوع حاجاتهم(١)؛ لذا خصّهم الله تعالى بالذكر قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر: ١٥] فأعلمهم ربهم ﷻ أنهم فقراء، وسمّاهم بذلك مما يبين أن فقرهم أمرٌ ذاتي فيهم ثابتٌ لهم، لا ينفك عنهم "فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أنّ غنى الرب تعالى لذاته لا لأمر أوجب غناه"(٢)، وفي إضافة افتقارهم إليه سبحانه "دلالة على أنه لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته وحده وعدم عبادة مَن سواه"(٣)،" فالذي له الخلق والأمر والنعم كلها منه، وكل مخلوق مفتقر إليه لا يستغني عنه طرفة عين هو الذي يستحق أن يُدعى ويُرغب إليه، ويرهب منه ويُتّخذ معاذا وملاذا ويُتوكّل عليه"(٤)؛ ومـمـّا يشهد على أن العباد مفطورون على الافتقار إلى الله ﷻ "أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة، وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعونة من أحد، فكأنه بأصل خلقته، ومقتضى جبلته يتضرع إلى مَن يخلصه منها ويخرجه من علائقها وجدائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر"(٥). لذا لمّا بكّت الله ﷻ عبادة الأصنام وتهكّم بالأنداد في قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾[فاطر: ١٤] عقّب ذلك بقوله ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر: ١٥] "لتذكيرهم الالتجاء إليه، والتضرع،

---

(١) انظر التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، (٥/ ٢١٩)، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص٢٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، (٢٦/ ٢٣٠)، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

(٤) المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، عبد الرحمن التميمي، ص٧١، ط١، (د. م)، دار الهداية، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، (١٩/ ٧١).

والابتهال إذا مسّهم الضر وأخذت البأساء بمخانقهم، فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعا إلى سؤاله لا مردّ له، وحاثاً إلى اللجأ إليه لا صادّ عنه"(١).

هذا وقد قرّر سبحانه فقر العباد إليه، وغناه التام المطلق عن خلقه في مواطن عدّة من كتابه من ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾[الأنعام: ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾[محمد: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ٦٤﴾[الحج: ٦٤] ونحوها من الآيات الدالة على أنه سبحانه الغني "الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ إذ لا يلحقه نقص، ولا يعترضه عارض؛ ومن عرف أنه الغني استغنى به عن كل شيء، ورجع إليه بكل شيء، وكان له بالافتقار في كل شيء"(٢).

كذا مما يبين أهمية الافتقار أنه الصفة الجامعة لأنواع العبادات، القلبية منها والبدنية، فالعبد مفتقر إلى الله تعالى في عبادته أن يعينه عليها، وأن يتقبلها منه، وبقدر ذلك الافتقار يكون أثر العبادة في حياته، وبعد مماته، يجد نفعها وثمرتها في دنياه وأخراه؛ من هنا وصّى الله تعالى نبيه ﷺ أن يستقيم كما أمر قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ أي "فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها"(٣)، وهذا لا يكون إلا بالافتقار إلى الله تعالى، ونفي الحول والقوة عن النفس بالكلية. وتحقيق الافتقار في العبادات من أعظم طرق الوصول إلى الله تعالى وأيسرها، يقول ابن القيم: "أقبلت على الله جل وعلا من أبواب الخيرات والطاعات كلها، فوجدت على الأبواب الزحام

(١) محاسن التأويل، القاسمي، (٨/ ١٦٤)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الهروي، (٢١/ ٣٨٣).

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي، (٨/ ٢١٥)، ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

-يعني كثرة من يقبل على الله من هذه الأبواب- فلم أسلم من المزاحمة، فولجت باب الافتقار فوجدت قرب حصول المطلوب مع عدم حصول المزاحمة"[1].



(١) شرح العقيدة الطحاوية، دروس صوتية لخالد المصلح، ولم أقف عليه في كتب ابن القيم.

المبحث الثالث

افتقار الأنبياء عليهم السلام

أظهر القرآن الكريم افتقار الأنبياء وصدق لجؤهم إلى ربهم، وذلك في ست عشرة سورة من سوره، لاسيما المكية منها، ومن مظاهر افتقار الأنبياء -عليهم السلام- التي أبرزتها الآيات خشيتهم لربهم؛ إذ الخشية ثمرة العلم بالله ﷻ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] يقول الحافظ ابن كثير(١): "إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر"(٢)، وما من أحد أعلم بالله وماله من جليل الصفات من أنبيائه؛ فكانوا به أعلم، وله أخشى. ولا تتجلى خشيتهم من الله ﷻ في موقفٍ تجليها في موقف يوسف عليه السلام حين عرضت له المعصية، وتمثلت له الفتنة في أكمل صورها فما حبسه عنها إلا خوفه من الجليل ﷻ؛ فإنه لما ابتلي بما ابتلي به من فتنة امرأة العزيز، وتوعّدها إياه بالسجن والصغار؛ حينما امتنع عن الاستجابة لما دعته إليه من السوء والفحشاء، لم يجد وهو العبد الغريب مركبا للنجاة إلا الاعتصام بالله واللجوء إليه، والافتقار والخضوع بين يديه فتذلل لربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣] "استسلام لله تعالى ورغبة إليه وتوكل عليه، المعنى وإن لم تنجني أنت هلكت،

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين أبو الفداء القرشي البصرويّ الدمشقي الشافعي، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه، له تصانيف من أشهرها: تفسير القرآن العظيم، التاريخ المسمّى بالبداية والنهاية، واختصر تهذيب الكمال وأضاف إليه ما تأخر في الميزان سماه التكميل، وطبقات الشافعية وغيرها. توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، (٨: ٣٩٧)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، ط١، دمشق: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني ١: ١٥٣، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة، (د. ت)؛ طبقات المفسرين، الداودي، (١/ ١١١- ١١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦/ ٥٤٤)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، (د. م)، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله"[1]، فكانت ثمرة تلكم الخشية وذلك الخوف ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾[يوسف:٣٤].

وحينما نطالع سيرة الحبيب محمد ﷺ نجد فيها أروع الأمثلة الدالة على كمال خشيته لربه، بل قد كان ﷺ أشد الناس علما وخشية، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا تَرَخَّصَ فِيهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[2]، ومن مظاهر خشيته ﷺ لربه استشعاره عظمة الله وإجلاله ورهبته منه، عَنْ مُطَرِّفِ بن عبدالله بن الشخير عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: رأيت رسول الله ﷺ "يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ[3] مِنَ الْبُكَاءِ[4]. وحينما منّ الله عليه بفتح مكة، لم يدخلها دخول المنتصر، الظافر بأعدائه بل دخل مكة وذقنه على راحلته

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (٣/ ٢٤١)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، (٨/ ٢٦)، ح (٦١٠١)، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع، (٩/ ٩٧)، ح(٧٣٠١)؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، (٤/ ١٨٢٩)، ح(٢٣٥٦).

(٣) الْمِرْجَلُ بكسر الميم وفتح الجيم الْقِدْرُ إذا غلت، وَالْأَزِيزُ بفتح الهمزة وبعدها زاي ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضا وهو صوت القدر إذا غلت، وقوله (لجوفه أزيز) يعني لصدره أزيز، والأزيز هو صوت بكائه ﷺ كأزيز المرجل، يعني: كالصوت الذي يصدر من القِدر إذا استجمعت غليانًا، وصارت تغلي، يكون لها صوت، فهذا الصوت يصدر من جوفه -عليه الصلاة والسلام- من البكاء. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٢/ ٢٠٦)، شرح سنن أبي داود، لابن رسلان، (٥/ ٤٨-٤٩)، تحقيق: عدد من الباحثين بإشراف خالد الرباط، ط١، مصر: دار الفلاح، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

(٤) أخرجه أَبُو دَاوُدَ في سننه، كتاب الصلاة، باب البُكاء في الصلاة (٢/ ١٧٣)، رقم (٩٠٤)، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، ط١، (د. م)، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩ م؛ والنَّسَائِيُّ في سننه، باب البكاء في الصلاة، (٣/ ١٣)، رقم: (١٢١٤)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢،حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، وأخرجه أحمد في مسنده، (٤/ ٢٥)، (١٦٣٥٥)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م؛ وأورده ابن حبان في صحيحه، (٣/ ٣٠)، رقم ٧٥٣، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (د. ط)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م؛ والحاكم في المستدرك، (١/ ٣٨٥)، تحقيق: مصطفى عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م وقال "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ".

متواضعاً لله، ذاكراً لفضله، متخشعا، حتى أن ذؤابة عمامته كادت تلامس عنق بعيره من شدة الخوف والخشية من الله(١).

ومن مظاهر افتقار الأنبياء إلى ربهم، امتثالهم لأمره، فإنهم يجدون في عبادة ربهم أنسهم وراحة قلبهم وطمأنينته، ويجدون للطاعة، وامتثال الأمر لذةً لا تدانيها لذة، كيف لا "وأوامر المحبوب قرة العيون، وسرور القلب، ونعيم الأرواح، ولذات النفوس، وبها كمال النعيم"(٢)، لذا حاز الأنبياء قصب السبق في سرعة الاستجابة والامتثال لأمر الله ﷻ ولا غرو؛ فهم الخُلّص من العباد، أعلى الخلق مقاما، وأفضلهم عبوديةً والتزاماً، وها نحن ذا نلمح طيف إبراهيم عليه السلام وهو يُودِع ابنه الرضيع وأمه بمكان قفرٍ لا ماء فيه ولا حياة، دافعه الامتثال للأمر الرباني، والاستجابة للتكليف الإلهي، والثقة التامة بربه أنه لن يضيعهم. وحين خلّفهم عليه السلام في ذلك الوادي واتجه عائدا أدراجه إلى بلاد الشام استوى على ثنية كداء(٣) مقبلا على الوادي، داعيا ربه متذللا إليه قائلا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[إبراهيم: ٣٧] تطرق تلك الدعوات سمعك يلفتك تكرار النداء في ثناياها وما ذاك إلا "رغبة في الإجابة وإظهارًا للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى"(٤)، وفي دعائه عليه السلام "مراعاة للأدب والمحافظة على

---

(١) انظر نبي الرحمة، عبد الرحمن بن عبد الله، ص٩٠.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص ١٠١.

(٣) ثَنِيَّةُ كَدَاءٍ بفتح الكاف والمد والتنوين، وعدمه نظرا إلى أنه علم المكان، أو البقعة، ثنية من ثنايا مكة وهي التي ينحدر منها إلى المقبرة المسمّاة عند العامة بِالْمَعْلَاةِ، وتسمى بِالْحَجُونِ عند الخاصة، وَالثَّنِيَّةُ: الطريق الضيق بين الجبلين، وبأسفلها ثَنِيَّةُ كُدًى بضم الكاف والكسر، والتنوين، وتركه، وَهُوَ الْمُسَمَّى الْآنَ بِبَابِ الشَّبِيكَةِ. انظر معجم البلدان، الحموي، (٤/ ٤٣٩)؛ ط٢، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م.؛ معالم مكة التأريخية والأثرية، عاتق البلادي، ص٢٢٧ ط الأولى، مكة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(٤) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الهروي، (١٤/ ٤٢٠).

الضراعة، وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة، ومن ثم منّ الله عليه بالقبول وإعطاء المسؤول، وأجاب دعائه"(١).

أما نبي الله عيسى عليه السلام فيتجلّى تمثله لأمر ربه ووقوفه عنده لما قال الله تعالى له – وهو يعلم أن عيسى عليه السلام ما كان ليقول ذلك– ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فكان جوابه عليه السلام ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فكيف لعيسى عليه السلام أن يقول مثل هذا القول وهو النبي المصطفى والرسول المجتبى؟ كيف له أن يقول بهذا وهو الوقاف عند حدود الله؟ كيف له أن يقول ذلك وقد شهد له الله تعالى بأنه قد دعا قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفى عن نفسه ما زُعم له من ألوهية قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿٧٢﴾﴾[المائدة: ٧٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴿٥١﴾﴾[آل عمران: ٥١] ونحوها من الآيات. ثم نراه عليه السلام يمضي في تذلله وإخباته وافتقاره لربه قائلا ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴿١١٦﴾﴾[المائدة: ١١٦]. هكذا هم الأنبياء عليهم السلام القدوة لأقوامهم في الطاعة لله تعالى، والاستسلام لأمره، والافتقار إليه؛ فإن الافتقار حادٍ يحدو العبد إلى ملازمة التقوى، كونه "يتخلّى بفقره أن يتأله غير مولاه الحق، وأن يضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يفرق همومه في غير محابّه، وأن يُؤثر عليه في حال من الأحوال فيوجب له هذا الخُلُق، وهذه المعاملة صفاء العبودية وعمارة السر بينه وبين الله، وخلوص الود"(٢).

كما ظهر افتقار الأنبياء إلى ربهم حال عملهم الصالحات؛ وفق أصلٍ عظيمٍ من أن العبد وإن عمل صالحاً لكنه يظل مشفقاً راجياً أن يتقبله الله منه، وهذا الأصل نتاج هضم النفس واحتقارها في جنب الله ﷻ؛ فإن مَن علم حقيقة كونه عبداً لله ﷻ وأدرك عظم معبوده وجليل صفاته، فإنه مهما بلغ من الصلاح والتقى، ومهما تقرب بأنواع الطاعات، إلا أنه يظل مشفقا أن

(١) المرجع السابق، (١٤/ ٤٢٣).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص٣٧.

يُحرم القبول؛ مما يجعل من خوفه دافعا له إلى بذل المزيد من الجهد ومضاعفة الخطى، والإلحاح على الله بغاية التذلل والمسكنة علّ الله تعالى أن يقبله قال الإمام ابن القيم: "كلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضّله، ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وتفضله"(١)، من هنا برز موقف إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد كان دعاؤهما وهما في اشتغال بطاعة الله، يبنيان بيت الله الحرام استجابة لأمره ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾[البقرة: ١٢٧]، فهذا الدعاء منهما دلالة على الحالة التي كانت عليهما من ترددهما بين الخوف والرجاء، فهما يسألان الله الرضا والقبول والثواب والله هو السميع لدعائهم وقولهم العليم بنيتهم وإخلاصهم، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب :"جلال الله وعظمته في قلوب الذين يعرفونه، لدعوتهما بالقبول"(٢).

كذا في دعاء الخليل ﷺ وتضرعه لمولاه ختم تلك الدعوات المباركات بسؤال ربه القبول قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾[إبراهيم: ٣٥ – ٤٠].

ويظهر افتقار الأنبياء إلى الله حال دعائهم؛ إذ الدعاء في "حقيقته إظهار الافتقار إليه، والتبرُّؤ من الحول والقوة، وهو سِمَةُ العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، ص ١٩٤.

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم، محمد بن عبد الوهاب، ص٣٢، تحقيق: د. محمد بلتاجي، (د. ط)، الرياض، مطابع الرياض، (د. ت).

الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه"(١) ولمّا كان أنبياء الله -عليهم السلام- أعلم الخلق بالله، وأشدهم له تعظيما، وأعرفهم به قدرا فقد جسّدوا في دعواتهم حال المؤمن الحق مظهرين شدة تضرعهم وافتقارهم إلى ربهم لا سيما حال الشدة والكرب؛ إذ هي الحال التي تحمل العبد على صدق اللجوء والخضوع والتذلل إلى القوي العزيز، يقول ابن الوزير: "والاستضعاف ذوقُ الافتقار إلى الله تعالى، فيحمله على الالتجاء إلى الله تعالى بذَوْقِ الضرورة إلى ذلك، وذلك أقرب أحوال العبد إلى الله تعالى، وهو سبب فضيلة الفقر والمصائب والضرورات"(٢)، فذاك إبراهيم الخليل عليه السلام حينما جادل قومه في عبادتهم للأصنام، فدحض حجتهم، وأبان عجز أصنامهم، وأظهر الحق، ودفع الباطل، لم يجد قومه وسيلةً لنصرة آلهتهم إلا استعمال سلطانهم ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾[الأنبياء: ٦٨]، فشرعوا في جمع الحطب وأضرموا النار في جميعه، وأوثقوا إبراهيم عليه السلام وجعلوه في المنجنيق، ورموه في النار، "وهكذا المبطل إذا قُرعت شبهته بالحجة، وافتُضِح لم يكن أحد أبغض إليه من المحِقّ، إذ لم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء"(٣)، فما وجد الخليل عليه السلام ملجأً ينجيه إلا الاعتصام بالله ربه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: "كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)(٤)، فانتصر الله عز وجل لرسوله قال تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾[الأنبياء: ٦٩] قال الماوردي(٥): "جعل

---

(١) شأن الدعاء، للخطابي، ص٤، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، ط٣، (د. م)، دار الثقافة العربية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، (٩/ ٣٥٧)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، (٣/ ١٢٦)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، بَابُ {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [آل عمران: ١٧٣] الآيَةَ، (٦/ ٣٩)، ح (٤٥٦٤).

(٥) علي بْن مُحَمَّد بْن حبيب أَبُو الحسن البصري المعروف بالماوردي، كان من وجوه الفقهاء الشافعيين، وجعل إليه ولاية القضاء ببلدان كثيرة، له تصانيف عدة منها «الحاوي الكبير» و «التفسير» و «الإقناع» و «أدب الدين والدنيا» و «الأحكام السلطانية» وغير ذلك. توفي سنة خمسين وأربع مئة. تاريخ بغداد، (١٣/ ٥٨٧)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان، (٣/ ٢٨٢)؛ تاريخ الإسلام، الذهبي، (٩/ ٧٥١).

الله فيها بردا يدفع حرها، وحرا يدفع بردها فصارت سلاما عليه"(١)؛ فإن من توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعائه وأزال ضرره وفتح له أبواب رحمته.

ولما أصاب الضرُّ أيوب عليه السلام (٢) وحلّ به البلاء العظيم "لم يستبدّ به الجزع، ولم تستولِ عليه الحيرة، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم.. بل ظلّ مجتمع النفس، ساكن الفؤاد، رطب اللسان بذكر الله"(٣)، لم يزده ما به إلا رغبة في ثواب الله وحُسن إيمان، فكان كما وصفه ربه ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾[ص: ٤٤].

وحينما طال به زمن البلاء، وناله في نفسه وأهله وبدنه ما ناله من الضراء، وحلّ به المصاب الجليل ناجى ربه و "أَلْطَفَ في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب"(٤) إيماءً منه بأن ربه عليم، قال تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ

---

(١) النكت والعيون، الماوردي، (٣/ ٤٥٤).

(٢) لنا مع ما أصاب نبي الله أيوب عليه السلام وقفات: أولها أن النبوة لا تنافي البشرية، وأن الأنبياء عليهم السلام يعتريهم من الأحداث ما يعتري البشر مما لا يُنقص منهم في نظر العقل والحكمة، ثانيها: أن الضر الذي أصاب أيوب عليه السلام لم يصبه لهوانه على الله -حاشاه-، بل كان ابتلاء من الله له واختبارا لصبره، فإن الله ﷻ يبتلي أولياءه ومَن أحب من عباده في الدنيا بضروب من البلاء من غير هوان به عليه، ولكن اختبارا منه؛ ليبلغ بصبره عليه واحتسابه إياه، وحُسن يقينه منزلته التي أعدها له تبارك وتعالى من الكرامة عنده، ثالثها وصْف الله تعالى أيوب بالصبر، مع حكاية شكواه لربه ما نزل به من الضراء وحلّ به من البلاء دليل على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر ولا تتعارض معه، قال القرطبي: "كان ذلك دعاءً منه، والجزع في الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا"، رابعها: أن في ذكر ابتلاء الله تعالى لأيوب وبيان صبره على ذلك؛ "تذكيرا للعباد وتنبيها لهم على إدامة العبادة واحتمال الضرر" تأسيا به عليه السلام. خامسها: أن من أسباب الفرج دعاء الله تعالى، والابتهال إليه والتضرع له وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العلى. انظر التحرير والتنوير، (٢٣/ ٢٧٢)؛ جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، (١٨/ ٥٠٧)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١١/ ٣٢٥-٣٢٧)، تحقيق: هشام سمير البخاري، (د. ط)، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م؛ محاسن التأويل، القاسمي، (٧/ ٢١٣).

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، (٩/ ٩٣٤)، (د. ط)، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت).

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، (١/ ٣١٦٥).

رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[الأنبياء: ٨٣]، قال المراغي(١): "وهذا أسلوب من الطلب دقيق المسلك حكيم المنحى"(٢)، وقال الثعلبي: "قال الجنيد(٣): عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال" (٤)، وهو ذات المعنى الذي تضمنه قوله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾[ص: ٤١] فهو "كناية لطيفة عن طلب لطف الله به، ورفع النُّصب والعذاب عنه، بأن صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك"(٥).

أما نبي الله يونس عليه السلام فقد بلغ به الحال أن يكون مضطرا إلى رحمة من رحمات الله، محتاجا أن يتداركه الله بلطفه؛ إذ ليس للمضطر بابٌ يقرعه سوى باب الدعاء قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[النمل: ٦٢]، فكانت لدعوة المضطر خصوصية تجعلها مستجابة عند الله تعالى، ذلك أن دعوته مشوبة "بشدة الافتقار إلى الله، وقوة الانكسار، وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليه فكيف بمن اضطر إليه"(٦)، وسبب

---

(١) أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر مصري، من العلماء. تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩ ثم كان مدرّس الشريعة الإسلامية بها. وولي نظارة بعض المدارس. وعين أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، وتوفي بالقاهرة. له كتب منها: (الحسبة في الإسلام)، (الوجيز في أصول الفقه)، (تفسير المراغي)، (علوم البلاغة). الأعلام، الزركلي، (١/ ٢٥٨).

(٢) تفسير المراغي، (١٧/ ٦١)، ط١، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٦هـ - ١٩٤٦م.

(٣) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ قال الذهبي: كان شيخ العارفين وقُدْوة السّائرين، وعَلَم الأولياء في زمانه، تفقّه على أبي ثور. وَسَمِعَ مِنْ: الحَسَن بن عَرَفَة، وغيره. واختصّ بصُحبة السري السقطي، والحارث المحاسبي، وأبي حمزة البغدادي، وأتقن العلم، ثمّ أقبل على شأنه، واشتغل بما خُلِق له، وكان ممّن برز في العِلم والعمل. توفي سنة سبع وتسعين ومائتين. وفيات الأعيان، (١/ ٣٧٣)؛ تاريخ الإسلام، (٦/ ٩٢٤)؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٧/ ٢٤١).

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، (١٨/ ٢٢٠)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان وآخرون، تحقيق: عدد من الباحثين، ط١، جدة – المملكة العربية السعودية: دار التفسير، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١١/ ٣٢٦)، تحقيق: هشام سمير البخاري، (د. ط)، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٣/ ٢٧٠).

(٦) تفسير أسماء الله الحسنى، السعدي، ص٢٢٦، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، (د. ط)، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١١٢ عام ١٤٢١هـ.

وقوع يونس ﷺ في الشدة والكرب أنه غاضَب قومَه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم، فذهب فارّاً بنفسه[1]؛ ظناً منه أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله تعالى، وبغضاً للكفر وأهله، وفي الوقت الذي كان عليه أن يصابر، وينتظر الإذن من الله تعالى بالمهاجرة تعجّل يونس ﷺ فهرب وركب السفينة، فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت له، وذهابه به في ظلمات البحر، فلم يكن حبل الخلاص مما وقع فيه إلا الافتقار إلى الواحد القهار، ولم تكن سفينة النجاة مما حلّ به إلا أن ينادي في تلك الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ "تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الإنجاء مما أنا فيه غيرك، ثم أفصح بطلب الخلاص، ناسبا إلى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله"[2] ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[الأنبياء: ٨٧]، فكانت تلك الدعوة بعدُ -وحُقّ لها أن تكون- فرجاً لكل كرب، وغوثاً لكل ملهوف، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ"[3].

وزكريا ﷺ المشتاق إلى الذرية، المحتاج إلى الولد، لما رأى من شأن مريم -عليها السلام- ما رأى، ووقوفه على كرامة الله لها ولطفه بها، علم أنّ الذي أعطاها الرزق في غير حينه قادر على إعطائه الولد، فلم يمنعه ما به وبزوجه من كبر سنٍّ ورقة عظمٍ ووهنٍ، وما بامرأته من عقرٍ أن يتذلل إلى الله تعالى، ويفتقر إليه، وينزل به حاجته بدعاء خاشع وتضرعٍ خالص ونداءٍ خفي، نداءً يسأل به ذريةً طيبةً يأنس بها، وتكون له قرة عين قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، (٤/ ١١٦)؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١١/ ٣٢٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٥/ ١٠٦).

(٣) رواه الترمذي في سننه، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ،(٥/ ٤٠٩)، ح(٣٥٠٥)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ط٢، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين، (٢/ ٤١٤)، ح(٣٤٤٤)، وصححه بقوله هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، و وافقه الذهبي على تصحيحه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، (١/ ٦٣٧)، برقم (٣٣٨٣)، (د. ط)، بيروت، المكتب الإسلامي، (د. ت).

لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[آل عمران: ٣٧ – ٣٨]، ولو تأملنا دعاء زكريا عليه السلام وما حكاه الله عنه بقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾﴾[مريم:١- ٦] فسوف نرى في هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة،"فقد توسل إلى الله تعالى بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقا أن يتم إحسانه لاحقا"(١)، فاستجاب الله دعاءه، وآتاه ما سأل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء:٩٠].

أما نبينا عليه أفضل صلاة وأتم تسليم ففي معركة بدر(٢)، أول معركة في تاريخ الإسلام، تلكم المعركة التي كانت فيصلاً بين الحق والباطل، وفرقاناً بينهما؛ لما رأى قلة عدد من معه من المسلمين وضعف عتادهم، مقابل كثرة المشركين عَدَداً وعُدداً لجأ إلى ربه داعياً إياه ملحاً عليه أن ينجزه ما وعده من النصر، حتى بلغ منه الحال أن يسقط رداءه عن منكبيه لشدة ما كان عليه من رفع يديه بالدعاء ومناشدة ربه، فكان ذلك الفعل دافعا صاحبه الصديق رضي الله عنه لأن تدركه الشفقة بالنبي ﷺ فأتاه فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، روى مسلم في صحيحه من حديث عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص٤٨٩.

(٢) بَدْر هُوَ مَوْضِعُ الْغَزْوَةِ الْعُظْمَى الْمَشْهُورَةِ وَهُوَ مَاءٌ مَعْرُوفٌ أسفل وادي الصّفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، وَقَرْيَةٌ عَامِرَةٌ عَلَى نَحْوِ أَرْبَعِ مَرَاحِلَ مِنَ الْمَدِينَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَّةَ، قال ابن قُتَيْبَةَ بَدْرٌ بِئْرٌ كَانَتْ لِرَجُلٍ يُسَمَّى بَدْرًا فَسُمِّيَتْ بِاسْمِهِ. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري، (١/ ٢٣١)، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣؛ معجم البلدان، الحموي، (١/ ٣٥٧).

فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي(١)،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٢) وقد "كان هذا منه ﷺ قياماً بوظيفة ذلك الوقت من الدُّعاء والالتجاء إلى الله تعالى، وتعليم لأمته ما يلجؤون إليه عند الشدائد والكرب الواقعة بهم، فإن ذلك الوقت كان وقت اضطرار وشدة، وقد وعد الله المضطر بالإجابة، حيث قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]"(٣)، وعلى عقيدة الافتقار ربّى رسول الله ﷺ أصحابه، ورسّخ تلك العقيدة في نفوسهم عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ، أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ: «وَاللهَّ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ:

(١) قوله: (اللهم أنجز لي ما وعدتني)؛ أي: عجّل لي ما وعدتني من النصر، وكأنه ﷺ لم يبين له وقت نصره، فطلب تعجيله. ولا يلزم من اجتهاده في الدعاء في ذلك الوقت أن يكون ارتاب في أن الله سينجز له ما وعده به، لكنه قام بحق العبودية من إظهار الفاقة، وامتثال العبادة؛ فقلبه ﷺ مستغرق بمعرفة الواعد، وإنجاز الموعود، ولسانه وجوارحه مستغرقة بالقيام بحق عبادة المعبود، فقام في كل جارحة بوظيفتها، ولكل عبادة بحقيقتها. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، (٣/ ٥٧٥)، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو وآخرون، ط١، دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، باب الإمام مُخَيَّرٌ في الأسارى وذكر وقعة يوم بدر، وتحليل الغنيمة، (٣/ ١٣٨٣)، ح (١٧٦٣).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، (٣/ ٥٧٤).

«أَبَيْنَا أَبَيْنَا»(١) فإن تمام الافتقار أن يعلم العبد يقينا أن الهدى والإعانة على الطاعة من الله، وأن الحول والقوة منه، وأن النصر منه، وأن كل خير يصيب العبد إنما هو من الله ﷻ.

وحينما كادت الهزيمة أن تنزل بجيش المسلمين يوم حنين؛ تربيةً لهم إذ اختل الافتقار إلى الله من القلوب شيئا، فإنهم لما رأوا ما هم فيه من كثرة العُدَد والعتاد، ووفرة السلاح، مع كثرة عددهم ظنوا أن تلكم الأسباب كافية لتحقيق النصر، وهزيمة المشركين، فقالوا "لن نغلب اليوم من قلة" متناسين قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[آل عمران: ١٢٦]، ويأبى الله إلا أن يمحصّ قلوب المؤمنين، ويملأها إيمانا به، ويقينا بفاقتهم إلى عونه ونصره، فكانت السبيل إلى ذلك أن يمكن منهم أعداءهم فيفروا هاربين، ولم يثبت سوى رسول الله ﷺ وفئة الصدق حوله وأَيَّدَهُم ربهم بالملائكة، فاختلفَ تَوَجُّه المعركة، وكان النصر للمؤمنين، والعذاب على الكافرين، ثم يتوب الله برحمته على التائبين، والله هو الغفور الرحيم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[التوبة: ٢٥ – ٢٦].

ومن أعجب مظاهر افتقار الأنبياء إلى الله تعالى تلكم التي تكون في المواطن التي تغمرهم فيها النعم، وتعظم لهم فيها الهبات؛ فإن المؤمن يستشعر فاقته وفقره إلى ربه حتى في أوقات العزّ والتمكين والإنعام، ولنا في نبي الله سليمان عليه السلام الأسوة، فإنه لما رأى عرش ملكة سبأ – مع بُعد الشقة ما بين مأرب(٢) والشام– حاضراً لديه، كائناً بين يديه قبل ارتداد الطرف؛ أدرك عظيم المنة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَابُ المَغَازِي، بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ وَهِيَ الأَحْزَابُ، (٥/ ١٠٩)، ح(٤١٠٤)؛ وكِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ حَفْرِ الخَنْدَقِ، (٤/ ٢٦)، ح(٢٨٣٧)؛ وبَابُ الرَّجَزِ فِي الحَرْبِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ، (٤/ ٦٤)، ح(٣٠٣٤).

(٢) مارب بفتح أوّله وثانيه، ثم راء مهملة مكسورة، ثم باء معجمة بواحدة، ويخفّف، وهو الأكثر. ويقال مأرب، بإسكان ثانيه، بلاد الأزد باليمن، وهي بين حضرموت وصنعاء وكانت مدينة سبأ، وهناك أرسل الله سيل العرم، الذي ذكر في كتابه.

وكبير الفضل قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾[النمل:٤٠] "فأضاف الفضل إلى الله بعنوان كونه ربه لإظهار أن فضله عليه عظيم؛ إذ هو عبد ربه فليس إحسان الله إليه إلا محض فضل"(١).

ولما كان الإنعام في حقيقته ابتلاء بالنعم، واختبار من المنعم، قام سليمان ﷺ بحق النعمة شكراً؛ إذ "الشكر قيد النعمة الموجودة، وصيد النعمة المفقودة "(٢)، ثم قرر أن نفع ذلك الشكر وثمرته إنما تعود على صاحبه لكمال غنى الله تعالى، فمن كفر بأنعم الله وإحسانه فلنفسه ظلم، وحظها بخس؛ فإن الله ﷻ غني عن العباد، وهو لعظمته غير مفتقر لأحد بل كل أحد مفتقر إليه، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُ

مْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا

=انظر معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري، (٤/ ١١٧٠)، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ؛ معجم البلدان، الحموي، (٥/ ٣٤)، ط٢، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٩/ ٢٧٢).

(٢) معالم التنزيل، البغوي، (٣/ ٥٠٦)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ"(١).

أما يوسف عليه السلام فإنه لما أتمّ الله عليه نعمته، ومكّن له في أرضه، وجعل رؤياه التي رآها في منامه حقاً؛ استشعر عظيم المنّة، وأدرك عظم فقره وفاقته إلى ربه، فتوجه إليه ذاكراً شاكراً قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾[يوسف: ١٠١]، فدعا الله أن يتوفاه مسلماً مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا على الإسلام والتوحيد؛ إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب الخاتمة وتعليماً للأمة، يقول ابن القيم: "جمعت هذه الدعوة: الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء هو الدين الذي ارتضاه الله -تعالى- لجميع خلقه"(٢).

افتقر الأنبياء إلى الله تعالى حين تجردوا من الركون إلى النفس، وصدقوا في التجائهم إلى الله؛ استشعاراً لضعفهم ومطالعةً لعيب أنفسهم، "ذلك أن مطالعة عيب النفس توجب الذلة والانكسار والافتقار، وأقرب باب يدخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً، ولا مقاماً، ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلةً منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه"(٣)، كان نوح عليه السلام أول من اصطفاه الله برسالته، وأحد أولي العزم من الرسل، ظل يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً متسلحاً بالصبر في دعوته، متبعاً كل طريقة، ومستنفداً كل وسيلة، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى قال تعالى:

(١) رواه مسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، (٤/ ١٩٩٤)، ح (٢٥٧٧)

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص ٢٠١،

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، ص٧، تحقيق: سيد إبراهيم، ط٣، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[نوح: ٥ – ١٤]، وعلى الرغم مما بذله عليه السلام من الجهد ما آمن بدعوته إلا قليل، فاستحق من لم يؤمن من قومه العقوبة، واستوجبوا على أنفسهم العذاب، فكان قدر الله نافذ وأمره آتٍ، وفي اللحظة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[القمر: ١١–١٢] أدرك نوح عليه السلام أن ابنه سيهلك مع الهالكين، فحملته شفقة الأبوة، مع وعد الله إياه بنجاة أهله أن ينادي ربه الذي عوده بالإحسان الجزيل قَالَ تَعَالَى:﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[هود: ٤٥] فجاءه الجواب قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[هود: ٤٦] فما نال النجاة من أنجاه من أهله إلا صلاحهم، فلما انتفى عن ابنه الصلاح، لم تنفعه أبوته، فقضى الله عليه أن يكون من الهالكين. فما غرّ نوحاً عليه السلام طول مدة دعوته، وما ركن إلى ما كابد من تعب، وما التفت إلى ما بذل من جهد في دين الله بل "تنبه إلى هذا التأديب الرباني وأجاب بما يدل على التنصّل مما سأل"[١] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ثم بسط إلى الله عز وجل كفه، وطرق باب رحمته، ولجأ بالافتقار إليه قائلا ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وكذا إبراهيم الخليل عليه السلام ضرب لنا أبين مثال، ففي مقام مناظرته لقومه، وبيان بطلان إلهية ما يعبدون من الكواكب السماوية، والأجرام العلوية، تلك المناظرة التي ارتكز فيها إبراهيم عليه السلام على مجاراة قومه فقال حين رأى كوكبا (هذا ربي) "على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه؛ ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنّه موافق لهم؛ ليهشّوا إلى ذلك ثم يكُرّ

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٢/ ٨٨).

عليهم بالإبطال إظهاراً للإنصاف وطلب الحقّ"(١)، إنها المحاجّة التي استدل فيها بالأفول على عدم استحقاق تلك الأجرام أن تكون إلهاً؛ إذ أن شأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير شؤون عباده، فكيف بإلهٍ يغيب أن يرعى حال مغيبه مصالح العباد؟ ومع ظهور حجة إبراهيم، وعلو كعبه في تلك المناظرة إلا أنه لم يركن لذلك بل أظهر غاية الافتقار إلى هداية ربه الملك الجبار قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ ﴾[الأنعام: ٧٦ – ٧٧] فهو ذو علم تام، ويقين صادق" أن الهدى بيد الله فمن لم يهده الله فلا هادي له، ومن لم يعنه على طاعته فليس له من معين"(٢).

أما الحبيب محمد ﷺ فمع رفعة مقامه عند ربه، و ما بذل في جنب الله من الهجرة والجهاد والدعوة إلى الإسلام، و على الرغم مما لاقاه من صنوف العذاب وألوان الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله، إلا أنه لم يركن لكل ذلك، ولم ير فيه سبباً موجباً ليدخل به الجنة؛ لذا قال لأصحابه رضوان الله عليهم -وهم من أثنى الله عليهم وزكاهم، وبشر بعضهم بالجنة- «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ(٣)» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا(٤)، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»(٥) يا لها من تربية!! وأي تربية، مدارها احتقار النفس، وغمطها في جنب الله، وعدم العجب بها والركون إليها، والطمع

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٧/ ٣٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص ٢٦٢.

(٣) هذا القول ليس فيه نفي فائدةِ العمل الصالح كما توهَّم البعض، ولكن فيه أن العملَ الصالح لا يوجب دخولَ الجنة لذاته؛ ردًّا على المعتزلة القائلين إن العملَ الصالح يوجب دخولَ الجنة لذاته، وصاحب العمل الصالح يستحق أن يُدخلَه اللهُ الجنةَ.

(٤) (سددوا) اقصدوا السداد، واطلبوه، واعملوا به في الأمور، وهو القصد فيها دون التفريط ودون الغُلو، فالسداد هو الاستقامة، وهو القصد في الأمر والعدل فيه. (وقاربوا)؛ أي لا تُفْرِطوا، فتُجهدوا أنفسَكم في العبادة؛ لئلا يُفضي بكم ذلك إلى الملال، فتتركوا العملَ، فتُفَرِّطوا. انظر فتح الباري، العسقلاني، (١/ ١٢٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٨/ ٩٨)، ح (٦٤٦٣)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، (٤/ ٢١٦٩)، ح (٢٨١٦).

في عفوِ ورحمة ذي الجلال والإكرام؛ لذا كان من وصيته لابنته فاطمة رضي الله عنها أن تبرأ من حولها وقوتها إلى حول الله وقوته، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رضي الله عنه – قَالَ: " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ – رضي الله عنها-: مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ "(١)؛ فإن من وكّل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعورة، وذنب وخطيئة.

ولما اقتضت حكمة الله تعالى عصمة الأنبياء عن الكبائر وعدم عصمتهم عن الصغائر؛ مراعاة لبشريتهم فقد وقعوا في الذنب، وبدر منهم الزلل؛ فإن الله ﷻ حينما خلق الخلق "جعل الشيطان لهم عدواً يُوحشهم به إليه، وحرّك عليهم النفس؛ ليدوم إقبالهم عليه، فكلما تسلّطا عليهم رجعوا إليه بالافتقار، وقاموا بين يديه على نعت اللجأ والاضطرار"(٢)، ومن مظاهر افتقار الأنبياء مبادرتهم إلى التوبة بعد الوقوع في الذنب ومداومتهم الاستغفار فبذلك أظهروا فقرهم وفاقتهم إلى عفو ربهم ومغفرته، وبه حققوا عبوديته لله تذللاً واستكانة وخضوعاً وانكساراً بين يديه. وكانت التوبة بعد الذنب منهجاً نبوياً سار عليه كل الأنبياء عليهم السلام، فحينما وقع آدم عليه السلام في المعصية، وأقدم على الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، بادر – حينما أدرك ذنبه– إلى الندم والتوبة وألهمه الله ﷻ تلك الكلمات التي كانت سببا في قبول توبته قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾[البقرة: ٣٧]، إنها تلك الكلمات التي أنبأنا الله عنها في قوله تعَالَى:﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف: ٢٣]، يا لها من كلمات تنبئ عن ما لحقه عليه السلام من الندم،

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، (٩/ ٢١٢)، ح (١٠٣٣٠)، و البيهقي في الأسماء والصفات، (١/ ٢٨٥)، ح (٢١٣)، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، ط١، جدة: مكتبة السوادي، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م ؛ قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. المستدرك على الصحيحين، (١/ ٧٣٠)، ح (٢٠٠٠)؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (٥٨٢٠).

(٢) تفسير روح البيان، إسماعيل حقي، (٢/ ١٨٨)، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

كلمات أظهرت فقره عليه السلام لعفو ربه ومغفرته، وحاجته إلى أن يتداركه الرحمن بلطفه ورحمته إذ لو لا ذلك لكان من الخاسرين.

وذا النون عليه السلام لم يجد -بعدما أذنب- سبيلاً إلا التوحيد مفزع أولياء الله وأعدائه﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء: ٨٧] فتداركه الله برحمته بسبب توبته واستغفاره قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾[الصافات: ١٤٣- ١٤٤].

أما داود عليه السلام من أثنى الله ﷻ عليه بقوله ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾[ص: ١٧]، واختصه بأن جعله خليفة في الأرض ليحكم بين الناس، "فكان معروفاً بذلك مقصوداً، فقد ذكر لنا سبحانه نبأ خصمين اختصما عنده في قضية، جعلهما الله لداود فتنة، وموعظة لخلل ارتكبه"(١) فتنبه عليه السلام وذكر ما بدر منه، ولحقه بسبب ذلك الغم والكرب الشديد، فلم يجد لنفسه خلاصا إلا أن يعفّر جبينه ساجداً مستغفراً، منيباً إلى ربه تائباً فكانت تلك الحال سبب لطف الله به وإحسانه إليه بقبول توبته ورفعة منزلته. هكذا هم الأنبياء عليهم السلام، حتى وإن لم يبدر منهم الذنب؛ لكمال عبوديتهم، فإنهم يلجؤون الى الله بطلب التوبة إظهارا لافتقارهم، فقول نوح عليه السلام ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾[نوح: ٢٨] لا لذنب فعله بل كان "إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحباً للمستغفر لهم من والديه والمؤمنين"(٢)، وإبراهيم عليه السلام مع عصمته إلا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص٧١١، ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله تعالى لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها. أما ما ورد في معظم كتب التفسير فالواجب اعتقاد عدم صحته لكونه لا دليل عليه، ولأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام؛ فما نُسب إليه عليه السلام لا يليق بأدنى المؤمنين فضلا عن أحد الأنبياء والمرسلين. انظر المرجع السابق، ص ٧١٢.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، (١٥/ ٩٠)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

أنه خاف المؤاخذة فطمع في الغفران فحكى الله تعالى عنه قوله ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾[الشعراء: ٨٢].

أما نبينا الكريم ﷺ من بشره ربه بغفران ذنبه ما تقدم منه وما تأخّر كان يكثر الاستغفار، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: «وَاللهَّ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَّ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١)، وحينما أتم ﷺ مهمته فأدى الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، أمره ربه بالاستغفار قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾[النصر: ١-٣]، عن عائشةَ رضي اللهَّ عنها قَالَتْ: (مَا صَلَّى رسولُ اللهَّ ﷺ صلاةً بعْد أَنْ نزَلَت علَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾[النصر: ١] إلاَّ يقول فِيهَا: سُبْحانك ربَّنَا وبِحمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي)(٢)، وفي رواية لمسلم: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» قَالَتْ عائشةُ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟ قَالَ: «جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا» ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾[النصر: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ"(٣).

كما ورد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «فِي سُجُودِهِ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(٤)؛ دافعه "سلوك طريق التواضع، وإظهار العبودية، ولزوم خوف الله وإعظامه والافتقار إليه، وامتثال أمره بالرغبة إليه"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، (٨/ ٦٧)، ح (٦٣٠٧).

(٢)- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سُورَةُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهَّ، (٦/ ١٧٨)، ح (٤٩٦٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، (١/ ٣٥١)، ح (٤٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، (١/ ٣٥٠)، ح (٤٨٣).

(٥) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي الإتيوبي، (١٣/ ١٣٨)، ط١، (د.م)، دار ابن الجوزي، ١٤٣٦هـ ؛ وانظر بذل المجهود في حل سنن أبي داود، خليل أحمد السهارنفوري، (٤/ ٣٥٣)، ط١، الهند، مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

ثمرات الافتقار:

١. من الثمرات التي يجنيها العبد بافتقاره إلى ربه أن يحقق في نفسه معنى العبودية الحقّة؛ بأن يصير كله للهِ ﷻ، لا يبقى عليه بقية من نفسه، وحظه، وهواه، يَصْدُق عليه قول الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام: ١٦٢]، "وقد ذكر الله في كتابه عن خَوَاصِ عباده ما يوجب العلم بان أفضل الرتب وأجلّ الكرامات تحقيق العبودية، وإخلاص العبادة، ووصف رسوله بذلك في مقام الإسراء وفي مقام التحدِّي، وفي مقام الدعوة، ومن توهَّم أن فوق العبادة وتحقيقها وإخلاصها رتبة وفضلاً لأحد من العباد فهو من أضل الخلق، وأجهلهم بالله وبحقه وما يجب له، ومن أجهل الناس بحق الأنبياء والصالحين، وما يجب لهم، وما يستحيل"(١)، وتحقيق العبد لتلك العبودية وسيلة لحمايته من تسلط الشيطان عليه، فإن الشيطان لما أقسم للرحمن أنه سيغوي آدم وذريته، ردَّ الله عليه مبينًا أن هناك طائفة لا يستطيع أن يسيطر عليها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾[الإسراء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢]،فمن حقق العبودية لله وحده فلا سلطان للشيطان عليه.

٢. من ثمرات الافتقار أن يحب العبد الله ﷻ فتكون محبته أكبر من كل محبة؛ لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، والله هو الذي يصلح للعبد شانه كله دقه وجله، لذا قدّم إبراهيم عليه السلام بين يدي افتقاره إلى ربه ما أوجب له سبحانه ذلك الافتقار قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ

(١) مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام، عبد اللطيف آل الشيخ، (٢/ ٣٥٤)، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله الزير آل حمد، ط١، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣ م.

لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾[الشعراء: ٧٨ – ٨٧]، كذا يثمر الافتقار ثقة العبد بربه الثقة الكاملة، والعلم أنه يأوي إلى ركن شديد، فلا يخشى شيئا إلا الله، يقينه أنه لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوه بشيء لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

٣. الافتقار يوجب للعبد الهدى والرحمة من الله سبحانه دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤]، كما أنه سبب لحصول الإيمان وزيادته؛ "فإن شهود العبد فقر المخلوقات التام وحاجتها لربها، يوجب له كمال الخضوع والتذلل والافتقار والتضرع إليه في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضرّه في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدّة الطّمع في برّه وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان ويقوى"(١).

٤. يثمر الافتقار للنفس عزّها وغناها الحقيقي؛ فمن افتقر إلى الله تعالى أغناه سبحانه عن غيره؛ ومن استغنى بعطاء ربه عن الناس عاش عزيز النفس كريما، "ولما كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به وأذلهم له أعزهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله، وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله؛ كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين(٢).

٥. من ثمرات الافتقار النجاة من الهموم والغموم والكروب، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء: ٨٨] قال السلمي: "يقول

---

(١) انظر نُورُ الإيمان وظلمات النِّفَاق في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ص١٠، (د. ط)، الرياض، مطبعة سفير، (د. ت).

(٢) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد عويضة، (٨/ ٢).

الجنيد: من همومهم وكروبهم بالإخلاص والصدق والافتقار، والالتجاء، وحقيقة حسن الاعتراف وإظهار الاستسلام"[1].

٦. طمأنينة النفس وسكونها واستقرارها؛ لأن الله تعالى فطر البشر على الافتقار إليه، فمن تمثّل الافتقار وحققه فهو على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها.

٧. بالافتقار إلى الله يحصل التمييز بين المؤمن والكافر؛ فالمؤمن دائم الافتقار لربه واللجوء إليه، دائم الذكر له والخضوع والتذلل بين يديه، إن أصابته السراء كان شاكرا لفضل ربه، ذاكرا لآلائه، حامدا لنعمائه، وإن أصابته الضراء لاذ بربه فارّا إليه، مظهرا فاقته إلى رحمته، منيخا مطاياه بباب الكريم وفي الحديث عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[2]، بل العجب كل العجب أن افتقار المؤمن لربه يظل ملازما له حتى في الدار الآخرة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾[التحريم:٨] يقول التستري: "لا يسقط الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ عن المؤمنين في الدنيا ولا في العقبى، هم في الجنة أشد افتقاراً إليه، وإن كانوا في دار العز والأمن والغنى لشوقهم إلى لقائه"[3].

(١) حقائق التفسير، السلمي، (٢/ ١٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ بَابُ الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، (٤/ ٢٢٩٥)، ح(٢٩٩٩).

(٣) تفسير التستري، ص١٧١.

الخاتمة

الحمد لله الذي يسر وهدى، من منّ علي بإتمام هذا البحث الذي تفيأت فيه ظلال الافتقار إلى الله تعالى، وتجولت في رياض عبودية الأنبياء عليهم السلام، وتذللهم إلى ربهم، والذي توصلت من خلاله إلى عدة نتائج منها:

- حقيقة الفقر دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وعدم الاستغناء عنه طرفة عين، واستشعار الفاقة التامة له من كل وجه.
- تعددت مواطن افتقار الأنبياء، فذُكِر افتقارهم في أكثر من عشرين موطنا في القرآن الكريم، وذلك في ست عشرة سورة من سوره، وجُلّ تلك المواطن مذكور في السور المكية، ولم يذكر في السور المدنية إلا في ثلاثة مواطن منها.
- أكثر سور القرآن اشتمالا على الآيات الدالة على افتقار الأنبياء عليهم السلام هي سورة الأنبياء، فحوت أربعة مواطن؛ ولعل مرجع ذلك أن من موضوعات هذه السورة تعقب أخبار الأنبياء بالمقصود الأساسي لرسالتهم وهو دعوة الناس جميعا إلى إخلاص العبادة لله تعالى، ولا ريب أن الافتقار أحد مظاهر الإخلاص في العبودية. وكذلك من موضوعاتها الحديث عن سنة من سنن الله وهي أن العاقبة للمتقين، وفي مظاهر افتقار الأنبياء إلى الله الواردة في القرآن ما يبرهن على هذه السنة ويجليها.
- خشية الله ﷻ إحدى مظاهر افتقار الأنبياء عليهم السلام، وهي مبنية على كمال علمهم به تبارك وتعالى.
- من مظاهر افتقار الأنبياء امتثالهم لأوامر ربهم، وسرعة استجابتهم لها.
- ظهر افتقار الأنبياء إلى الله حتى في حال قيامهم بالطاعات، وعملهم للصالحات.
- الدعاء وشدة التضرع إلى الله -خاصة في حال الكرب والشدة- أحد مظاهر افتقار الأنبياء عليهم السلام.
- أظهر الأنبياء افتقارهم إلى ربهم في مواطن التمكين والإنعام.

- استشعر الأنبياء عليهم السلام ضعفهم فتجردوا من الركون إلى أنفسهم، وصدقوا في لجوئهم على ربهم.
- من مظاهر افتقار الأنبياء المداومة على الاستغفار، والبدار إلى التوبة، وقع منهم الذنب أم لم يقع.
- من الثمرات التي يجنيها العبد بافتقاره إلى ربه تحقيقه العبودية، وزيادة إيمانه، وحمايته من تسلط الشيطان.
- الافتقار إلى الله موجب لمحبته ﷻ، وكمال التوكل عليه، وهو سبب نيل العبد هدى الله ورحمته.
- يثمر الافتقار عز النفس وغناها، وطمأنينتها، وخلوها من الهموم.

التوصيات: أوصي بمزيد من الدراسات حول الافتقار، ولاسيما في السنة المشرفة للوقوف على افتقار النبي ﷺ إلى ربه، وكيف ربى أصحابه رضوان الله عليهم وفق هذه العقيدة العظيمة.



المصادر والمراجع

١. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٢. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، ط١، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى القاسمي، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤. ابن حبان، محمد بن أحمد التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (د. ط)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٥. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط)، بيروت، دار صادر، ١٩٠٠م.

٦. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد السَلامي الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٧. ابن رسلان، أحمد بن حسين بن علي المقدسي الرملي الشافعي، شرح سنن أبي داود، تحقيق: عدد من الباحثين بإشراف خالد الرباط، ط١، مصر، دار الفلاح، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٨. ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

٩. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: سيد إبراهيم، ط٣، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م.

١٠. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: عمر بن محمود، ط٢، الدمام، دار ابن القيم، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
١١. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
١٢. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).
١٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، (د. م)، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٤. أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، ط١، (د. م)، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.
١٥. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
١٦. آل الشيخ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن، مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله الزير آل حمد، ط١، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣ م.
١٧. الإتيوبي، محمد بن علي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، ط١، (د.م)، دار ابن الجوزي، ١٤٣٦هـ.
١٨. الاستانبولي، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي، تفسير روح البيان، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
١٩. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزياداته، (د. ط)، بيروت، المكتب الإسلامي، (د. ت).

٢٠. الألوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢١. البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط١، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٢٢. البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٢٣. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٤. البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

٢٥. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي الخراساني، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، ط١، جدة، مكتبة السوادي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٦. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة، سنن الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ط٢، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢٧. التستري، سهل بن عبد الله، تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ.

٢٨. التميمي، عبد الرحمن بن حسن بن محمد، المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، ط١، (د. م)، دار الهداية، ١٤١١هـ -١٩٩١م.

٢٩. الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان وآخرون، تحقيق: عدد من الباحثين، ط١، جدة، المملكة العربية السعودية: دار التفسير، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٠. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله بن محمد، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.
٣١. الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، ط٢، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م.
٣٢. الحِميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م.
٣٣. الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد على شاهين، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
٣٤. الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، ط٣، (د. م)، دار الثقافة العربية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٣٥. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ بغداد، تحقيق: د.بشار عواد معروف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
٣٦. الخطيب عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، د. ط، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت.
٣٧. خليل بن أحمد، بذل المجهود في حل سنن أبي داود، السهارنفوري، علق عليه: تقي الدين الندوي، ط١، الهند، مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦ م.
٣٨. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، ط١، (د. م)، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.
٣٩. الرازي، محمد بن عمر بن الحسن التيمي، مفاتيح الغيب، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.
٤٠. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (د. ط)، الكويت: دار الهداية، (د. ت).
٤١. الزرعي، محمد بن أبي بكر أيوب، الفوائد، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٣- ١٩٧٣م.

٤٢. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد الدمشقي، الأعلام، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

٤٣. الزمخشري، محمود بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، د. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

٤٤. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، اعتنى به ياسر المطيري، ط١، الرياض، دار المنهاج، ١٤٣٦هـ.

٤٥. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، (د. ط)، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١١٢ عام ١٤٢١هـ.

٤٦. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط١، دمشق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٤٧. الشوكاني، محمد بن علي اليمني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة، (د. ت).

٤٨. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (د. ط)، بيروت، دار الفكر، (د. ت).

٤٩. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط١، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٠. الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٥١. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، (د. ط)، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٥٢. العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، ط٢، حيدر اباد-الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

٥٣. الفراهيدي، الخليل بن أحمد،كتاب العين، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، (د. ط)، بيروت، دار مكتبة الهلال، (د. ت).

٥٤. محمد بن عبد الوهاب، تفسير آيات من القرآن الكريم، تحقيق د. محمد بلتاجي، (د. ط)، الرياض، مطابع الرياض، (د. ت).

٥٥. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٥٦. القحطاني، سعيد بن علي، نُورُ الإِيمان وظلمات النِّفَاق في ضوء الكتاب والسنة، (د. ط)، الرياض، مطبعة سفير، (د. ت).

٥٧. القرطبي، أحمد بن عمر بن إبراهيم، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو وآخرون، ط١، دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦م.

٥٨. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، (د. ط)، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٥٩. الماوردي، علي بن محمد بن محمد البصري البغدادي، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).

٦٠. المباركفوري، محمد عبد الرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).

٦١. المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط١، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٦هـ- ١٩٤٦م.

٦٢. المصلح، خالد بن عبد الله بن محمد، شرح العقيدة الطحاوية (دروس صوتية)

٦٣. الناصري، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦٤. النسائي، أحمد بن شعيب الخراساني، المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، ط٢، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٦٥. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٦٦. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٦٧. الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة الدكتور هاشم محمد علي مهدي، ط١، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

